آمالنا محدودة

لصاحب العزة مريت بطرس غالى بك

الحياة حركة والموت ركود وسكون ، فإذا توقفت الحركة فى إنسان أو ضعفت ، فهذا يدل على أن حيويته ضعفت وأن بنيانه هزل وأن قوات الموت والانحلال أخذت تتغلب عليه ، والأمة أيضا كائن حى ، يخضع لهذا القانون الطبيعى كل الخضوع ، والحركة والحياة فى الأمة إنما هما فى السير الى الأمام والتطلع الى الرقى والسعى وراء تحقيق مبدأ واضح أو حلم لامع أو أمل فى إسعاد الأفراد والجماعات ، وبغير هذا الطموح وذلك التطلع إلى التحسن والتقدم ، لا تجد إلا ركودا وسكونا وموتا وفناء .

و إذن لتكن لنا آمال فى المستقبل ، ولتكن آمالنا واسعة ما أمكن ، لأنها المصباح الذى ينير طريقنا والثمرة التى تنتظرنا فى نهايته ، ولا نخاف أهدافا بعيدة ، فالطريق على كل حال عسير ، وكرامة الأمة وعزة نفسها إنما تعلو وتزداد بعلو الأغراض التى تجمع عليها ، والحياة كثيرا ما تباعد بين الأمل وتحقيقه ، فهى مساومة شريفة مع القدر أن تضع آمالك عالية واسعة ، حتى تدفعك إلى مضاعفة جهودك ، فتحمد لله إذا وفقك إلى تحقيق شىء من الكثير الذى سعيت إليه .

ولا أقول أن نندفع فى أحلام لا يمكن تحقيقها و برامج بعيدة كل البعد عما نستطيع الوصول إليه ، فإذا كان رأس المصلح فى قمة الجبال وعيناه تنظران إلى آفاق المستقبل ، يجب مع ذلك أن يوطد قدمه فى أرض الحقيقة والواقع ، لا يخطو خطوة دون أن يعود بنظره إلى أسفل ليتبين الطريق ، فلا يكون مثله مثل ذاك الفيلسوف القديم الذى وقع فى بئر بينما كان يسير وهو فى حلم بعيد عن كل ماحوله ، والمهم أن نتعرف قوانا ونختبر مرانتنا ونتبين طريقنا ، ثم نسير فيه الى أقصى ما يمكن النظر إليه دون خوف أو تردد ، و بغير ضعف أو تهاون .

وكم شهد التاريخ نهضات لم تكن منتظرة يوم أن نادى بها بعض الخاصة ، فقيل لهم : " اصحوا من حلمكم وكونوا عمليين " . ولكن الأيام أقامت الدليل على حكمهم ، والشعب انقاد لقوة إيمانهم وتغلب على المستسلمين والمتشائمين وأجمع على الإصلاح ، فتحقق الأمل وأصبح الحلم حقيقة واقعة ، وها هى ذى الأمم تأهب للاصلاح والتعمير بعد هذه الحرب الشعواء التى جاءت نكبة على الإنسانية ، والشعوب فى حركة وغليان والمفكرون والساسة والأحزاب فى كل بلد يرسمون برامج المستقبل و يضعونها أمام الرأى العام صريحة واضحة ، فهذه البرامج ليست إلا أمل اليوم ، وعلى الإيمان والجد والمثابرة أن تجعلها حقيقة الغد .

ونحن أيضا فى مصر عرفنا نهضة من تلك النهضات ، أجمعت الأمة على تحقيقها وناضلت فى سبيلها ، فنالت بعض أهداف الاستقلال والحرية والتقدم فى مختلف المرافق وهكذا قدر لآمال الأمس أن تصبح فى قدر منها حقيقة اليوم ولكن يبدو أنا راكدون فى منتصف الطريق الذى لا يزال أمامنا مرسوما واضحا ، وعلينا أن نتأهب مرة ثانية لنبلغ أهدافا أخرى ، ونحقق قدرا آخر من آمال الأمس واليوم. والظروف الحالية الاقتصادية والاجتماعية — العالمية والمحلية — أوجدت مشاكل معقدة وصعابا جديدة يجب حلها وتذليلها لنسير فى طريق نهضتنا القومية .

ولا يتسع المجال لأن أتناول الآن آمالنا السياسية وما نتطلع إليه من تكملة استقلالنا الخارجى ونظامنا الداخلى ، ولا آمالنا الاقتصادية وما تبغيه من زيادة الانتاج ورفع مستوى المعيشة وتوفير الغذاء والكساء .

والمسكن المريح للجميع ، بل أريد أن أتكلم عن ناحية أخرى هى الناحية الاجتماعية وتتلخص آمالنا فيها فى تمكين الروح القومية ، ونشر الشعور بالواجب والمسؤولية ، وبث فكرة الخدمة والتضحية ، ولا شك فى أن هذه هى الناحية الهامة ، لأننا إذا عنينا بها العناية الكافية واستطعنا أن نهض بها النهضة اللازمة ، أمكننا أن نذلل كثيرا من الصعاب وأن نسير سيرا حثيثا فى طريق الاصلاح المنشود .

هذا إلى أن آمالنا السياسية والاقتصادية مقيدة مع الأسف بكثير من الاعتبارات الخارجة عن إرادتنا إلى حد كبير ، مثل تطور السياسة العالمية وظروفنا الخاصة من ازدحام السكان وقلة المرافق الطبيعية وما إلى ذلك . أما آمالنا الاجتماعية والخلقية ، فلسنا مقيدين فيها ، وهى فى تحقيقها تخضع لإرادتنا وحدها ، ولذلك جاز لنا — بل وجب علينا — أن نعلو بها إلى أبعد حد ، لأن التقدم فى هذه الناحية لا حد له ، اللهم إلا فيما قد ينقصنا من عزيمة وشجاعة أدبية .

لكن الذى نلحظه بيننا على عكس ذلك ، فآمالنا السياسية والاقتصادية كثيرا ما تتجاهل الحقيقة ، وتتناسى تلك الاعتبارات الخارجة عن إرادتنا ، فى حين أن آمالنا الاجتماعية والأخلاقية محدودة متردية ، تؤذن بركود وتشاؤم خطيرين واستسلام لا مبرر له لما نشكو منه من ضعف أو فساد ، ولا أدل على هذا الركود والاستسلام من حكمنا على الرجال فى فضائلهم ورذائلهم ، وواضح أنه كلما سمونا بأملنا فيهم كلما أكثر تدقيقا فى حكمنا عليهم ، وكلما تواضعنا فى رجائنا تساهلنا فى حكمنا .

ولقد لفتت نظرى مرارا صور كثيرة لهذا الاستسلام المشؤوم ، فكم نسمع مثلا أن يقال عن شخص عند ما يراد مدحه والرفع من شأنه "إنه رجل نزيه" . أذكر أن أحد الذين أتشرف بصداقتهم روى لى أنه كان جالسا فى مجلس مع بعض الزملاء من المصريين والأجانب وكان مجال المناقشة ترشيح شخص لتسميه إلى عددهم فى كرسى كان قد خلا عن قريب ، فقام

أحد الحاضرين ورشح شخصا مكتفيا فى تذكيته بأنه أكد نزاهته ، فدهش بعض الآخرين لهذا التصريح ، وكان الأولى به أن يدرك أن هناك فضائل أخرى ، كالرغبة فى الخدمة وروح التضحية يجب أن توضع أيضا فى ميزان الاختيار . والظاهر أننا أصبحنا نرى فى مجرد النزاهة فضيلة تغنى عن كل ما سواها ، حتى يجوز لنا أن نتساءل عما اذا سامنا بأن نسبة النزيهين نقصت لدينا إلى حد أن لفت النظر إلى نزاهة هذا أو ذاك وكأنه أمر نادر ، يجب أن يشكر عليه المرء و يكافأ .

و إليكم بمثل آخر يوضح كيف تواضعنا فى أمانا فى الناس : كم نسمع عن بعض الذين شاء القدر أن يخصهم بشىء من مال الدنيا — قل أو كثر — أنهم جديرون بالاعجاب والثناء ، لأنهم مجتهدون فى استثمار مالهم وادارته على أحسن وجه . ماذا نفهم من هذا الحكم إن لم يكن أننا نسلم بأن عدد المتهاونين كثر إلى حد أن غير المتهاون أضحى يشار إليه إشارة خاصة ؟ أو هل نستنتج منها أنا استسلمنا للتهاون بالمصلحة العامة الى درجة نرى معها فى مجرد العناية بالمصلحة الخاصة والجد فى تحقيقها فضيلة يحمد عليها المرء ؟

وكثيرا ماتقول عن زيد أو عمر : أنه رجل مؤدب فقد سلم على وحياني بلطف ، فهل أضحت آداب التعاشر العادية نادرة لدينا حتى يقتضى الأمر أن يشار إليها إشارة خاصة ؟ أو هل سامنا بأن المرء الذى يحيى أخاه فى غير غلظة وخشونة هو الآخر يستحق الشكر والثناء؟

أترك للقراء الجواب على هذه الأسئلة ، ولا داعى إلى الإكثار من تلك الصور ، فكل منا يستطيع أن يذكر من أمثالها الشىء الكثير وكل ما يعنينا أن نوضحه هو أنا كدنا نستسلم لما نراه فينا من ضعف اجتماعى وتهاون خلق ، ونرى فى مجرد الكف عن الرذيلة الكفاية والغناء ، فنعتبره أقصى ما يمكننا الوصول إليه وهذا تفكير سلبى لا يقدمنا خطوة فى سبيل النهضة المرجوة . وأما الروح القومية الخالصة والشعور بالتضامن الاجتماعى الصحيح ، وأما الرغبة فى الخدمة والتضحية فقليلا ما نذكرها الآن ، ونادرا ما نحسب لها حسابا فى آمالنا الغد ونقيم لها وزنا فى حكمنا على الناس .

وأعود فأقول أنه يجب علينا أن نهتم بمستوانا الخلقى والاجتماعى ، ونأخذ أنفسنا بأسباب هذه النهضة جادين فى تحقيقها غير متهاونين فيها . فبدل أن نعتبر مثلا النزيه أو المجد أو المؤدب شاذا فى بيئتنا وجديرا بالثناء ، نرى على عكس ذلك الشذوذ فى غير النزيه أو المجد ، ونعيد لمعانى الخدمة والتضحية ما كان لها من وزن وقت أن نهضنا بعد الحرب الماضية ، ونطالب أنفسنا والناس بها فنعلوا بآمالنا عن مستوانا الحالى ونحاول كل منا أن

يضع هدفه فى حدا بعيدا عاليا ، لا يغفر لنفسه تهاونا ، ولا يستسلم للفساد أو الضعف بل يحتفظ دائما بروح الاستنكار والثورة على من لا يشعر بمسئوليته نحو الأمة ولا يؤدى واجبه لها.

والأمر ليس إلا أمر تربية الرأى العام تربية تقوى إحساسه بالنقص وتشجع غضبه على التهاون والفساد . ولا شك أن العبء الأكبر فى هذا يقع على القادة والرؤساء ، سواء فى السياسة أو الإدارة أو التعليم أو المؤسسات والأعمال الحرة فعلى هؤلاء الخاصة تقع المسئولية الأولى ، وعلى شعورهم بالواجب وحسن أدائهم له تبنى آمالنا فى المستقبل . ولكن مسئوليتهم الكبرى لا تعفى كل واحد منا فى محيطه الخاص — واسعا كان أو ضيقا — من أن يلعب دوره فى هذه التربية ويشترك فى تحقيق النهضة التى لا بد منها إذا أردنا أن نعد عدة الغد .

فنخرج إذا من ركودنا ، ولنتخلص من ذلك التشاؤم والاستسلام الذى نما بيننا نماء الحشيش فى الحقل عندما يتهاون الزارع ولا يقوى على حرث أو عزق أو رى . لنزداد ثقة بأنفسنا ونسمو بآمالنا فى التقدم الاجتماعى والنهضة الخلقية ، ونضاعف جهودنا فى تحقيقها والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير هذا الوادى المبارك وهذا الشعب الكريم .

مريت بطرس غالى

متى كانت علاقتنا العامة — أى علاقتنا القومية — ضعيفة ، وثقتنا بعضنا ببعض بالية ، كان رأينا العام مضطربا ، أعجز من أن يعبر تماما عن رأى البلاد . وأبعد من أن تكون آثاره سعدا علينا . وليست هذه النتيجة نتيجة نظرية ، بل الواقع الملموس فى بلادنا هو اضطراب الرأى العام فى الحكم على كثير من مسائلنا الحيوية .

أحمد لطفى السيد باشا